



موت بسبب الحصار

موت بالكيماوي

في سوريا تشعر بطعم الموت في كل لحظة وفي كل ثانية، الحياة والوفاة يتراافقان فلا يدرى المرء أيهما سيقابله في الطريق، وأيّهما سيسبق إليه ويقترب منه ويستأثر به ولا ينجيك البقاء في بيتك، ولا تأمن من المشي في الشارع، ولا يحميك من الأذى المكوث في مكان تظنه آمناً.

فالمدن كلها سواء، والانفجارات لا تميز بين حي وآخر، وشظية صغيرة قادرة على الانتقال مسافات طويلة، ويمكنها قتل الرجل الكبير وهو جالس في داره.

وفي بعض مناطق سوريا يموت الفرد فلا يستطيع أهله استخراج شهادة تثبت وفاته، ولا يحظى - أحياناً - بقبر يؤويه إلا زاوية في بستان أو في حديقة الدار، وقد لا يجد عيناً تبكيه، فجميع الناس في المحنّة سواء والخطب كبير. في سوريا استوى الموت مع الحياة، وحين يستويان يتجرأ الناس على مجاهدة الصعاب ويندوب خوفهم فتراهم يمارسون حياتهم الطبيعية!

تسقط القذيفة في ساحة العباسيين إحدى الساحات الرئيسية في مدينة دمشق، فيموت بعض الناس ويصاب بعضهم الآخر، ويسحب الإسعاف المصابين... وبعد دقائق قليلة تعود الحياة لما كانت عليه.

دمشق تعيش في تناقض غريب، شوارع خالية ومدن خاوية في طرف وعلى طرف الأوسטרاد شوارع مزدحمة ومدن مسكونة فيها الرائح والغادي، وفي المدينة ذاتها أحيا مدمراً بالكامل وأحياء عامرة، هي طبيعية يبيع الناس فيه ويشربون ويتذهبون، وفي الحي المجاور له يُحاصرُون ويُجُوعُون ويُقتلُون.

أكثر الرجال باتوا بلا عمل ولا مورد، والأسعار في غلاء، حتى المنتجات المحلية أسعارها خيالية. وأصبح بعض الطعام من الكماليات، الكهرباء تنقطع 12 ساعة متواصلة، والغاز أصبح ذكرى جميلة، فصاروا يخترعون ويدعون وسائل جديدة لتجاوز الأزمات وتأمين الضرورات، عادت الحياة في سوريا إلى بساطتها القديمة، وابتعد الناس عن التفاخر بالمشاهير والماركات.

الناس معكثة في دورها لا تخرج إلا لضرورة ملحة، وأكثر ما يخرج الناس من أجله هو الدفن والعزاء، كل يوم يُودعون شهيداً أو أكثر.

وبعد المغرب تفرغ أكثر الطرق، واقتصرت أحاديث الناس عن المآسي والحرمان، فهذه بيتهما تهدم وسرق، وهذه دخلت قذيفة من شباك البيت فقطعت أصابع ابنتها الصغيرة وجربوا وصَنُّوها في المشفى ولم تستعاد.. شوارع كثيرة أغلقت، والانتقال من حي إلى حي يستغرق ساعتين، والمشي أصبح أسرع وأسهل.

الحواجز التي تملأ الشوارع، والقادمون عليها يختلفون؛ وفي المناطق الراقية يُعاملون المارة بشيء من الاحترام، وفي المناطق الشعبية يعاملونهم بكل ازدراة.

وقد يقف المرء ساعة ونصف الساعة ليمر على حاجز واحد، ويضطرون بين كل حارة وحارة لجان من الطائفة العلوية ومن الإيرانيين وحزب الله ويتسلحون بالسواطير.

في بعض الأحياء المستهدفة هَبَطوا بيوتا على أهلها وهم في داخلها بلا إنذار ولا تهديد مسبق وكأنه زلزال، فملأت رائحة الموت المكان، وانتشر الذعر، وسال الدم في الطرق كما سال أيام المغول والتنار، وكان أهل الشام يستدلون على بيوت بعضهم بعضاً بأسماء الشوارع والدكاكين، وباتوا اليوم يستدلون بأسماء الفروع الأمنية وأماكن التفجيرات.

أتباع النظام يدقون على بعض البيوت الفارغة يوماً أو يومين فإن لم يجدوا أهلها فيها أسكنوها الشبيحة، بل أخرج النظام بعض أهل حي الميدان والزاهرة من بيوتهم قسراً وعلى حين غرة وأسكن فيهما أعوانه، واستأجر بعض البيوت الفاخرة المشرفة على الفروع الأمنية غصباً عن أهلها.

أصبح الناس يعيشون بالبركة وإذا خرجو لا يدركون إن كانوا سيعودون سالمين، أصبح التخطيط خارج قدراتهم وطاقتهم، ولا يدركون ماذا يحدث بعد ساعة، فالخطف مألوف والفدية غالبة. والاعتقالات والمداهمات لم تتوقف.

ثانياً - "ريف دمشق" في آخر تقرير وفي "قدسيا" هدموا المحلات التجارية الرئيسية في مدخل البلدة ودمروا بيتهما القريبة وشردوا سكانها، وما زال بعض الأهالي مصرین على البقاء في البلدة وعدم مغادرتها مهما ضاق بهم الحال.

وفي "دوما" شرق دمشق دُمرت البنية التحتية، وخلت بعض المناطق من الماء والكهرباء والاتصالات وهجرها الناس، ثم رجعوا للحياة هناك...

وأين يذهبون وأكثر المدن محاصرة؟ والخروج من سوريا مكلف وصعب، وأحياناً يكون من المحال؛ فأكثر البلاد العربية والأجنبية أغلقت أبوابها أمام الشعب السوري، وأكثر الذين خرجنوا ذاقوا الווيلات، فرجعوا، وبدأت الهجرة العكسية لسوريا رغم اشتداد الصراع.

وأما في بربدة على الطرف الشرقي من دمشق فالحواجز خطيرة للغاية والمرء معرض للموت الحقيقي إذا مر عليها، وأخطرها تلك الحواجز الطيارة التي تظهر فجأة في وجهك فلا تعرف هل هو حاجز رسمي للنظام فتوقف له وتمثل؟ أم هو من حواجز زبانيته وأعوانه المنتفعين فتفر منه فرارك من المجزوم؟!

الحواجز الطيارة في بربدة يقوم عليها فتية من منطقة "عش الورور" المجاورة، وهم من الذين يستغلون تدهور الوضع الأمني في العاصمة فيسطون فجأة على السيارات ويختطفون راكبيها ويطالبون أهلهم بفذية عالية، وسواء أدفعوها أم رفضوها، لا

يعود المخطوف إلى ذويه في نصف الحالات، ويصبح في خبر كان.

رغم الظروف القاسية والمذابح والأهوال تَعُود الناس على الحال، وقد أثبتت الإنسان أنه أقدر المخلوقات على التحمل والتأقلم مع الأوضاع، فترى الناس يدخلون ويخرون ويعملون ويتزوجون وينتشرون في الشوارع والأسوق، ومنهم من يأخذ طريقه للأماكن المحاصرة رغم المخاطر والصعوبات.

ويغتنم بعض الداعمين والناشطين الفرصة ويدخلون في معيتهم، وهؤلاء يأتون من كل مكان بسياراتهم، فإذا اقتربوا كيلاً من الأماكن المنكوبة صفوها ومشوا على أقدامهم لأن دخول الحافلات ممنوع.

مروة فتاة جريئة دخلت مع الداخلين إلى "مخيم اليرموك" حاملة بعض الطعام والشراب، وهمها تفقد الوضع والاطمئنان على الناس، دخلت فأذهلتها مناظر البؤس والشقاء وحكايا المأسى والآلام فتأخرت وهي تمسح الجراح وتتابع أخبار الجوعى والثكالى واليتمى... وانتصف النهار فانتبهت وأرادت الخروج فاستحال عليها ذلك وقد تسلق القناصة فوق الدور والبنيات. الخروج من الأماكن المحاصرة بعد اصطدام القناصة هو أشبه شيء بمحاولة النجاة داخل قارب مطاطي متقوب في بحر لجي من فوقه موج هائج، ولكن الفتاة كانت مضطرة إليه وموتها كان أهون عليها من البقاء، فأهلها لا يعلمون أي شيء عن نشاطها، ونار القناصة أخف على رأسها من سياطهم ولومهم!

رحلة الخروج استغرقت ساعات في مسافة لا تتعدي ثلاثة كيلو مترات، وبدأت الفتاة رحلتها بصلة ركعتين والشهادة والاستغفار، وكتابة وصيتها، وتزويد الشباب ببياناتها ورقم أهلها... فكل خارج مهدد حقاً بالموت، ورصاص القناصة يصيب الذبابة الطائرة، والخروج يحتاج للحذر والتخطيط ولخبرة بعض الشباب الذين مضوا بها في طريق صنعه الجيش الحر بتكسير الحوائط بين الأبنية، فيمرون من بناء لبناء آخر، وبعض الأبنية متباude، فيضطرون للانبطاح على الأرض والتدحرج إلى الجهة الأخرى.

مضت الفتاة خلف الشاب وهو يكرر نفس الكلمات كلما مر على مفترق طريق: "تشهدي فنحن في خطر محقق وتوعي الموت"، يحذرها فتحنني وتزحف خلفه والرصاص يوز أزواً، يمر من فوقها وعن يمينها وشمالها، ويخرج صوته سمعها، وتتابع المسير، ويسأله دليلها كل قليل: "هل ندمت فنرجع؟"، فتتابع إصرارها على متابعة المسير. مشوا ساعات، بين الحطام والهدم، وتحت الأصوات، والقناصة فوق البيوت يضربون والموتى يسقطون والمصابون يتذرون...

حتى قالت الفتاة: "كدت أصاب بانهيار، وليس من رأى كمن سمع، كانت مغامرة مخيفة بلغت فيها القلوب الحناجر". وأضافت: "في تلك اللحظات يتقين الإنسان أنه لم يبق له إلا حقيقة واحدة، هي الموت، وصدق من قال: أصبح رغيف الخبز مقابل الحياة".

خرجت الفتاة بسلام. ولكنها كانت المرة الأخيرة، فالنظام أحكم الحصار على الغوطة الشرقية وجنوب العاصمة، وبنى سواتر ترابية لعزلها جيداً ومنع الدخول والخروج نهائياً، وحين تشتد الأوضاع يشقق المحسنون على المحاصرين فيشترون الحاجز بمليون ليرة لثلاث ساعات فقط، ثم يدخلون الشاحنات المحملة بالإغاثة، وقالوا: "تدخل ولا يمكنها الخروج من بعد، فتحتاج كل شاحنة لسائق فدائى يرضى بالعلوq في الداخل مع المنكوبين". المناطق المحاصرة في دمشق واسعة، وفيها أعداد كبيرة من الجائعين والمهددين بالموت، قدرتها الفتاة عددهم بمئات ألف يزيدون أو ينقصون في المناطق الجنوبية وحدها (كمخيم اليرموك والحجر الأسود)، وفي الغوطة الشرقية ما يقارب هذا العدد وهي محاصرة بشكل محكم تماماً، والنظام يطبق عليها بشكل قوى.

هذه قصة مرورة، أما عليا فكانت مضطرة للخروج إلى "الزبداني" غرب دمشق لإيصال المال، أخذت رفيقتها ومضت معها، الطريق إلى الزبداني بدا لها طويلاً وشاقاً وممثلاً برائحة الموت وصمت القبور، الشوارع فارغة، والمصايف مهجورة وشكلها مخيف ومرعب، قطعت مع رفيقتها أربعة عشر حاجزاً في طريق سفري خال من السيارات والحافلات، مظاهر

الرهبة تحيط بالمكان، وعلى كل حاجز رجال غلاظ، لا يعصون النظام ما أمرهم، ويُتوقع منهم كل شيء. امتلأ قلبها بالخوف، ولكن أمرها تيسرت حتى وصلت إلى الحاجز الأخير، مد الضابط يده وطلب منها النزول، فتش كل شيء وفتح كل شيء، وفتش حقيبتها تفتيشاً دقيقاً، وغفل عن حقيقة رفيقتها الممتهنة بالمال والمرمية خلف المقعد بإهمال. ووصلت الفتاتان إلى الزبداني بأمان، ولكن بدأ مع قدومها القصف العنيف، لا يمر يوم إلا وتقصف فيه البلدة والقصف كل يوم هو في شأن وكان يومها فظيعاً حارقاً، ولكنها أخذت قرارها بإنجاز مهمتها والعودة قبل المساء، وحين انتهت وضعت رجلها على دوامة البنزين وانطلقت بسرعة هائلة باتجاه الشام.

أما ياسر ورفاقه فقرروا الهروب إلى بيروت بعد اعتقال زميل لهم، فلما وصلوا إلى الحدود اعتقل النظام واحداً آخر منهم، سحبوه من بينهم فجأة فظن أنه الفراق ونظر إليهم مستجيراً مستنجداً، فتقدم أحد الرفاق وحاول استعطاف الضباط ورشوته مبالماً والمجوهرات، فعموا وصموا عن قبولها وتعففوا عن قبضها، وكانت النزاهة غريبة على أمثالهم وعلى الوضع الذي تعود عليه الناس.

واضطر الرفاق للمغادرة ولم يستطعوا فعل أي شيء سوى النحيب والبكاء، فنظرات زميلهم المعتقل لم تغب عن بالهم أبداً بقية الطريق.

وقطع الرفاق الحدود ودخلوا بلداً جديداً آمناً وما زالت رهبة الموت والقنص والاعتقال طاردهم، مما يحدث في سوريا ليس بقليل وقصص المعاناة كثيرة، وإن للأمان طعمًا رائعًا لا يعرفه إلا من حُرم منه

المصادر: